الإبداع الفكري

# مكانة العلماء ومنزلتهم
## في الشريعة الإسلامية

جمع/ حسن ابداح

وضعت الشريعة الإسلامية للعلماء منزلة ليست لغيرهم من الناس، وجعلت لهم مقاماً رفيعاً، وأقامتهم أدلاء للناس على أحكام الله عز وجل. ونقصد بالعلماء هم العلماء العاملين الأحرار الثابتين على الحق وليس علماء السلاطين الذين اتبعوا حكامهم وأفتوا بما أرادو وما وافق مبتغاهم والله المستعان.

**وهذا الاعتبار للعلماء: اعتبار شرعي، وينبني عليه أمران مهمان:**
الأول أن طاعتهم طاعة الله - عز وجل - ولرسوله -، فالتزام أمرهم واجب.
الثاني أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها، بل هي تبعٌ لطاعة الله ورسوله

**وأدلة هذه المنزلة للعلماء المخلصين الأحرار في الشريعة غير منحصرة، نذكر منها هذه الأدلة**

## • الدليل الأول

**أمر الله - عز وجل - بطاعتهم**

يقول الله سبحانه وتعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم }. وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منهم على أقوال: فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة. وقيل: هم أهل العلم. قال ابن عباس -رضي الله عنها: (يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلِّمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده)). ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله (والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء). ومرد طاعة الأمراء إلى طاعة العلماء، ومرد طاعة العلماء إلى طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

## • الدليل الثاني

**أن الله سبحانه أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل**

يقول الله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمونه. نعم فاسألوا أهل الذكر: ذلك أن السائل لا يصح أن يسأل من لا يعتبر في الشريعة جوابه؛ إسناد للأمر إلى غير أهله، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه: العلم بكتاب الله المنزّل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة). فالعلماء بمثابة الأدلاء فبهم يُعرف حكم الله ويستعان بهم بفهمهم لفهم مراد الله عز وجل ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام، لا أن طاعتهم مقصودة لذاتها. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه، والاستضاءة بنور علمه؛ فالأول يأخذ قوله من غير نظر منه ولا طلب الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به، ولذلك سمي تقليدا، بخلاف من استعان بفهمهم، واستضاء بنور علمهم في الوصول إلى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته من الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى)). فالعلماء إذن هم الوسيلة والطريق لتبين الأحكام فهذا العلم يتوارثه أهله فيأخذه الخلف عن السلف بالتلقي وهؤلاء العلماء يبينون أحكام الله عز وجل للناس.

## • الدليل الثالث

**أن الله سبحانه عظم قدرهم فأشهدهم دون غيرهم على أعظم مشهود**

يقول الله سبحانه: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم}. فقد أشهد الله - عز وجل - أهل العلم على أجل مشهود وهو توحيده ، وهذا يدل على فضل العلم والعلماء، وأن العلماء في جملتهم عدول ؛ لأن الله - سبحانه - لا يشهد إلا العدول، وأن الخلق تبع لهم، فإذا جعلهم الله - عز وجل - شهود على أعظم مشهود فإن هذا يدل على أن لهم اعتبارا في الشرع فيما دون ذلك. قال الإمام ابن القيم -رحمه الله- (وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم). وقال الإمام القرطبي رحمه الله (في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقربهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء). قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: وفي هذه الآية: فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر. وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده، ودينه، وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة. وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

## • الدليل الرابع

**أن الله عز وجل نفى التسوية بين العلماء وغيرهم فيقول سبحانه:**

فنفى التسوية بين أهل العلم والعوام، وفي هذا الدلالة على أن للعلماء من الاعتبار في الشرع، والمنزلة بين الخلق ما ليس لغيرهم من البشر، فالعلماء رفعهم الله على من سواهم من المؤمنين، والمؤمنون رفعهم الله على من سواهم: ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجاته. قال الطبري - رحمه الله - في معنى هذه الآية: ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم، بفضل علمهم درجات إذا عملوا بما أُمروا به).

## • الدليل الخامس

**أنهم أهل الفهم عن الله عز وجل قال تعالى**

فخواصّ الأمثال تضرب للناس كلهم ولكن تعقلها وفهمها خاص بأهل العلم فالله سبحانه: (حصر تعقّلها في العالمين، وهو قصد الشارع من ضرب الأمثال).

## • الدليل السادس

**أنهم أهل الخشية: يقول الله سبحانه {إنما يخشى الله من عباده العلماء}**

(وهذا حصر لخشيته في أولي العلم. وقال تعالى {جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله علهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين). ابن القيم قال ابن كثير رحمه الله: (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم» والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر). وأما الجاهل بالله عز وجل -. وما وعد أولياءه، وما أوعد أعداءه فإنه ضعيف المحبة لله والرجاء لما عنده والخوف مما عنده، كما أن العالم بها يتوفر له من المحبة لله والرجاء والخوف يكون أبعد عن أهواء النفس وحظوظها وهذا يجعل لكلامه من الاعتبار ما ليس لغيره من غلب عليه هوى نفسه

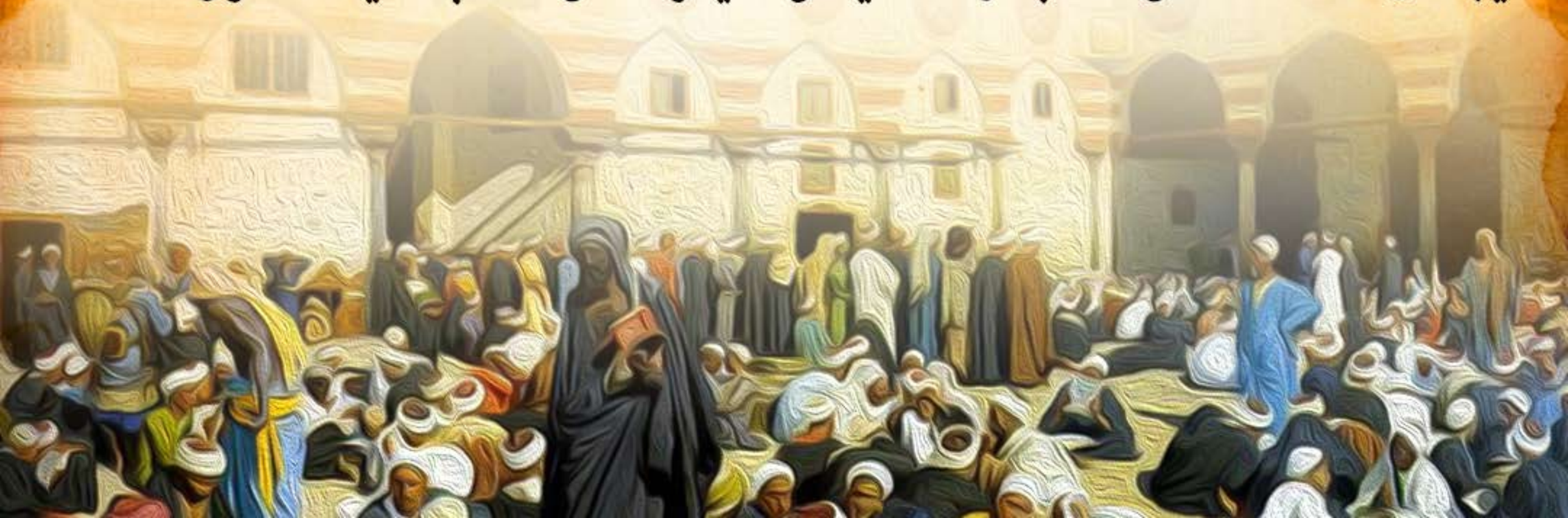

## • الدليل السابع

**أن أهل العلم أبصر الناس بالشر ومداخل الشر، قال الله عز وجل {قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين}**

قال الشيخ العلامة ابن سعدي رحمه الله: (قال الذين أوتوا العلم) أي العلماء الربانيون، (إن الخزي اليوم) أي: يوم القيامة، (والسوء) أي: سوء العذاب على الكافرين، وفي هذا فضيلة أهل العلم وأمهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ويقول سبحانه في سياق قصة قارون: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير}. فأهل العلم هنا كانوا متميزين عن غيرهم، فهم بُصراء بالشر وعلماء بالخير، فلما رأوا الناس يتمنون مثل ما أوتي قارون، حذّروهم من الشر وبينوا لهم الخير، وأن الدار الآخرة خيرٌ لمن آمن. وعمل صالحاً. فالعلماء العارفون بالشر ومداخل الشر كان لزاماً عليهم أن يبيّنوا للناس هذه الشرور، وعلى الناس لزوم طاعة العلماء والاستجابة لتحذيرهم من الشر ونهيهم عن المعاصي.

## • الدليل الثامن

### أن العلماء ورثة الأنبياء وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر

عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله يقول: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء» وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهما ولكنهم ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر). قال الإمام ابن رجب رحمه الله (يعني: أنهم وَرِثوا ما جاء به الأنبياء من العلم فهم خَلَفوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته؛ والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله). وإذا كان العلم الذي أوحى الله به إلى الأنبياء قد ورثه العلماء فإن العلماء أيضاً ورثوا شيئاً من الاعتبار الشرعي للأنبياء، فالأنبياء مُبَلِّغُون عن الله. والعلماء مبلغون عن الأنبياء.

## • الدليل التاسع

### أن الله سبحانه أراد بهم الخير

عن ابن عباس، ومعاوية - رضي الله عنهم - قالا: قال رسول الله : «من يرد الله به خيرا يفقه في الدين» قال الإمام الآجري - رحمه الله - فلما أراد الله تعالى بهم خيرة فقههم في الدين، وعلمهم الكتاب والحكمة، وصاروا سراجا للعباد ومنارة للبلاد). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (وكل أمة - قبل مبعث نبينا محمد - فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علمائهم خيارهم) وإذا كان الله - عز وجل - قد أراد بهم الخير فقههم في الدين وعلمهم التأويل، وخصهم بذلك، فقد خصوا أيضا بلزوم طاعتهم ووجوب الائتمار بأمرهم

## • الدليل العاشر

**أن نجاة الناس منوطة بوجود العلماء، فإن يُقبض العلماء يهلكوا**

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنها - قال: سمعت رسول الله يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)، ضلوا بإفتاء الناس بالباطل، وقولهم على الله - عز وجل - بغير علم ولا هدى، ولا كتاب منير وأضلوا الناس الذين اتبعوهم، وحينذاك يهلك الجميع. وليس يغني عن العلماء وجود الكتب، حتى لو كانت الكتب السماوية، إذ لو أغنت تلك الكتب عن قوم لأغنت عن بني إسرائيل الذين انحرفوا في اتجاهيّن فمنهم من عبد الله على جهل فكانوا ضالين فأولئك هم النصارى. ومنهم من أعرض عن أوامر الله - عز وجل - عن علم فكانوا مغضوباً عليهم فأولئك هم اليهود. وكل أولئك كانوا أهل كتاب فالنصارى لهم (الإنجيل) ولليهود (التوراة) ولم يغن عنهم وجود هذه الكتب شيئا، لما لم يكن هناك حملة لهما صادقون فيحمل العلم. وكذلك هذه الأمة لن يغني عنها وجود القرآن إذا لم يكن هناك علماء يحملون العلم. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ((خُذُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ)) قَالُوا: وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ؟ قَالَ: فَغَضِبَ لَا يُغْضِبُهُ إِلاَّ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: ((ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ أَوَلَمْ تَكُنِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمْ شَيْئًا؟! إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ، إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ).

## لذا فالبشر محتاجون إلى العلماء حاجة عظيمة

يقول الإمام أحمد - رحمه الله -: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثة، والعلم يحتاج إليه في كل وقت). وقال الإمام الآجري - رحمه الله -:(فما ظنكم - رحمكم الله - بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه ضياء وإلا تحيروا فقيض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم فسلكوه على السلامة والعافية ثم جاءت طبقات من الناس، لا بد لهم من السلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح فبقوا في الظلمة فما ظنكم بهم؟ هكذا العلماء في الناس، لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض ولا كيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبده به خلقه إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحير الناس واختفى العلم بموتهم وظهر الجهل)). ولولا العلماء لفسد عمل الناس. قال الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: من عمل في غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. ولقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام المثل للعلماء بالنجوم. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة).

فقد شبه العلماء بالنجوم، والنجوم لها فوائد. ذكر الله عز وجل منها في القرآن ثلاثة هي: الفائدة الأولى: أنها علامات للناس يهتدون بها في الظلمات، يقول الله تعالى: (وعلامات وبالنجم هم يهتدونه). و الفائدة الثانية: أنها زينة السماء، يقول الله تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح). الفائدة الثالثة: أنها رجوم للشياطين الذين يسترقون السمع، يقول الله تعالى:(وجعلناها رجوم للشياطين) والعلماء تجتمع فيهم هذه الأوصاف، فهم: الهداة الذين يُهتدى بهم الناس في الظلمات حيث يشتبه الحق بالباطل، وهم زينة هذه الأرض وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليس فيه من أهل البدع والأهواء والضلالات.

اللهم صبّر وثبّت وأعن وانصر وأيد علماءنا ومشايخنا والذابين عن حياض هذا الدين. اللهم إنا نتقرب إليك بحبهم وبغض من حاربهم لما معهم من الحق، فاجمعن بهم في الدنيا، وفي الآخرة مع النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين.